

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يكن يعلم. أبرز الخلق من وجود لعدم، وجعلهم شعوبا وقبائل وأصناف أمم. وفضل على العالمين أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير من سعى على قدم. أشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو الولي الحميد، يورث الأرض الصالحين من العبيد، ويقسم كل جبار عنيد. تسبح له السماوات السبع والأرض والأفلاك، يعز من يشاء من المستضعفين ويذل من يشاء من الجبارين والأملاك. تفنى الآثار وهو باق، حتى يجمعنا يوم الحساب والتلاق. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، يخزي يومئذ من طغى هنا أشرا وبطرا، ويفوز من جاهد في الله مصطبرا. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله جاء بالرسالة، وأدى أمانته حتى خرج الناس من جاهلية الجاهلية. صلى الله عليه وسلم ما تلي القرآن، وانتضيت أسلحة الحديد في الحق وأسلحة البرهان.

الله أكبر كبيرا لواء جهاد، حمله رسل الله مبشرين ومنذرين، وتعاونوه من بعدهم أهل الخلافة والرشاد، يدلون على الله هادين مهتدين. ثم ذبلت الكلمة على شفاه أجيال الغناء، تحت قهر الجبارين والزعماء. وتعطلت سنة أبي القاسم الذي أخبرنا أنه بعث بالسيف بين يدي الساعة^[1]، فرضيت بعده النفوس بالذلة والخناعة.

وها قد آن أن تقوم دولة القرآن، يؤذن بذلك ما يجدد الله في قلوب هذه الأجيال الصالحة من إيمان، وما وعد به سبحانه لهذا الدين من الظهور كما يجزم بذلك أهل الإحسان. فكلمة الله حق، ووعد صدق. خاب وخسر من في دُجَّةِ الارتياح نام، ومن منعه عادة القعود وخوف الناس من الهبة والقيام.

من على عينيه غشاوة الشك أتى يبصر تباشير الصباح، ومن في آذانهم وقر لا يغني فيهم النداء والصياح. شمس الإسلام در شعاعها، وقافلة الجهاد يتوالى سيرها وإسراعها. وعلى الطريق لا بد من رفيق. في كتاب الله الهدى، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم نفسي له الفدا. وإنما رفقة الجهاد لرسم المنهاج، ثم لتذليل العقبات وخرق كل سياج.

وهذا كتاب لرسم المعالم، وخط الطريق لجند الله القائم. فإن العلم إمام العمل، والعلم النافع ما أخرجك من ظل الكسل، ونهض بك لتسلك إلى الله تحت ظل

القنابل والأسل. وإنما هو القرآن جاء به حياة للقلوب من بعث بالسيف، ودليلاً إلى ذرى العزة لأمة نعست دهوراً على الظلم والإلحاد والجبر والحيف.

نفعنا الله بسنة المصطفى، وجعلنا ممن عض عليها بالنواجذ واقتفى. وجنبنا سبل الغواية والتوهين، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأنفال). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[1]2 روى الإمام أحمد رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقي تحت ظل رمحي. وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري. ومن تشبه بقوم فهو منهم".

إهداء

أهدي هذا الكتاب لقلوب طاهرة لا حابس لتطلعاتها دون الله
أهديه لمن لا تشغله العزة المرجوة للأمة من سعيه الدائم إلى الله
إلى رجال يقتحمون العقبة ويذللون الصعاب وهم من وراء الصعاب مع الله
إلى رجال أيقنوا أن صراط الاستقامة والفلاح لا بد فيها من دال على الله
وأن منهاج النبوة، منهاج تجديد الإيمان، مبدأه ومعاده كتاب الله
وأن المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها فرغ من بيانها رسول الله
وأن السير على هذه المحجة مع الصادقين يقتضي مئًا الصدق مع الله
وأن دولة القرآن ليست شعار حماس، إنما هي وعد الله ووعد رسول الله
وأن لا سبيل إلى إقامتها إلا ببذل النفس والنفيس في سبيل الله
وأن هذا البذل وحده هو البرهان على إيماننا وشهادتنا أن لا إله إلا الله
وأن الصادقين مع الله واجبهم أن يروضوا أنفسهم على طاعة الله
ثم يربوا جيلا مجندا مسلحا بالإيمان وبالعلم، قويا بوحدته قويا بالله
ثم يخوض جند الله بحر الفتن وظلماتها ليخرجوا الأمة لنور الله
أهدي هذا الكتاب لكل من يرفرف في قلبه الشوق الدائم إلى الله
ولا يستفزه عن غايته الإحسانية الصدام والصراع مع أعداء الله
ولا يستخفه الزهو بالعدد والخطب إلى استعجال موعود الله
وبخطى ثابتة يقصد في سيره صابرا على البلواء محتسبا على الله
وتحت لواء الجهاد الدائم يهضم النفس، يصبرها صبرا مع أهل الله
إلى كل أبواب حفيظ أهديه، إلى كل قوي أمين على دين الله

إلى تلك الأجيال التي يقيم الله عز وجل بها خلافة النبوة إن شاء الله
إلى كل محسن دعاه الله للتقرب إليه فلبى داعي الله
وعبر هذه الحياة الدنيا لا يمد عينه لزهرتها طمعا في رضى الله
وخلف وراءه جهادا يحيي الأمة فيبقى مع الشهداء حيا عند الله
إلى طالبي الكمال، طالبي الزلفى، طالبي الاصطفاء، طالبي وجه الله
ممن نهضوا من زاوية الخمول وركن الخنوع لا يقبلون إلا حاكمية الله
أهديه دليلا متواضعا إلى منهاج الدعوة والبناء ونصر كلمة الله
إلى أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله عليه صلاة الله وسلام الله

مقدمة

هذا الكتاب له مطمح أول هو أن يصبر القارئ عليه حتى ينسجم مع الخط الذي يرجع إليه الفكر بعد تموجات تدعو إليها معاناة واقع نريد تغييره، وأمل نرجو أن يتحقق، وهو قيام دولة القرآن، دولة الخلافة على منهاج النبوة. الخط الذي يعود إليه الفكر ويأوي إليه عبر تعرجات البحث والاستدلال والتخطيط هو ذلك المستقيم الصاعد بالعبد المومن إلى معارج الإيمان والإحسان. هو الصراط المستقيم الذي بلغ الله سبحانه عليه من اصطفاهم من عباده النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا. فمهما نكتب أو نقرأ منبسطين في أكوان الأرض والسماء، وعوالم السياسة والاقتصاد والصراع مع الباطل، فإنما نهئى الفهم لجهاد عملي فيه الخبط والضراب والمعارك. فإن لم يكن لنا مع الله عز وجل ساعة لا يسعنا فيها غير ذكره، بل إن لم يكن شغاف قلبنا مخدعا للحنين الدائم إليه سبحانه، ولم يكن مَحْيَانَا ومماتنا وصلاتنا ونسكنا لله حقا وحده لا شريك له، فقد أوشكنا أن تذرونا الرياح، ونذهب بددا مع الحركة، فتقتطفنا يد الهوى ونصبح من الخاسرين.

مطمح هذا الكتاب الأول أن نحافظ في هذه الرفقة على ذكر الله وما يقربنا إليه، بل أن يوقظ في أنفسنا همَّ الله ولقائه، لكيلا يغلب جسم الحركة والفكر على روح طلب رضى الله عز وجل.

والمطمح الثاني التابع هو أن نرسم في هذه الفصول والأبواب منهاج عمل يتجاوز همَّ الساعة إلى التطلع لغد الإسلام. وإنَّ من بيننا من يرى، وله رأيه، أن الحركة الإسلامية ينبغي لها ألا تفكر لغد لا يزال في طي الغيب. ينبغي لها أن تركز الجهد على الحاضر، تاركة فضول الترقب لمراحل تأتي. بل الأدهى من ذلك أن منا من يكتب هذا الكلام المذهل الذي مؤداه أن الحركة الإسلامية غير مسؤولة عما آل إليه أمر المسلمين، ومن ثم فلا داعي لحمل همه. وتبقى الفجوة واسعة في الفكر الإسلامي بين مثالية النموذج النبوي والنداء القرآني الخالدين وبين ما تعانيه الأمة من بأساء على أرض الواقع، أرض الغنائية والاستضعاف والفقر والجهل والعبودية للطاغوت.

كأن بعضنا يتصور أن جند الله يوم يصلون إلى الحكم يكفيهم أن يكنسوا الواقع البغيض بجرة قلم أو ضربة سيف كما كان، ولا يزال، يسمع عامتنا عن خرافات البطل الذي يطرح الآلاف من أعدائه بحركة حسامه.

مطمحننا الثاني التابع هو أن نقدم تصورنا لمنهاج عمل ينطلق بنا مما نحن عليه من علل، ويجمع من أطراف الحكمة لوصف الكيف : كيف كان النموذج النبوي في التربية والجهاد والحكم فذاً وبم كان ؟ كيف تحول المجتمع الجاهلي مجتمعاً إسلامياً ؟ كيف تطور التاريخ بالأمة على عهد الخلفاء الراشدين انحداراً إلى زوابع الفتنة، ثم بعد ذلك إلى الملك العاض فالجبري ؟ ثم كيف العمل اليوم وغدا لإتمام اليقظة الإسلامية المباركة، فانتزاع إمامة الأمة من يد ذرارينا المغربيين، فقيادة الزحف الإسلامي إلى مسك زمام الحكم، فإقامة دولة القرآن بتربية الرجال، وتجنيد الشباب، واكتساب العلم، وتوجيه الجهاد، وبناء المؤسسات السياسية، وإحياء الاقتصاد، وتحرير الأمة من الاستعباد والتبعية حتى توحيد دار الإسلام، ونصب الخلافة على منهاج النبوة ؟

لا يغني الوصف لولا صحوة الأمة على عتبة هذا القرن الخامس عشر قرن الإسلام. فهي تزداد تلهفا لمعرفة دينها، وتزداد استعدادا لتحمل أعباء الجهاد، وتزداد، بتردي أوضاعنا وفشل ساسة الطاغوت، تلهفا وترقبا ليوم تخفق فيه راية الإسلام على ربوعنا.

نداءات كثيرة تسمع في ديارنا فيما يرجع لمذاهب الفكر وأساليب التنظيم والحكم. كل ينادي على بضاعته، ويزين، ويلهج بالمديح. لكن صوت الإسلام وحده يُطرب هذه الأجيال المباركة، وبضاعة الإسلام وحدها تتفقق.

ما قُضَّ ويُقَضُّ مضاجع الجبارين إلا هذا النداء وهذه الاستجابة.

لأن الدعوة حق، ولأن الأمة، خاصة شبابها، أَشْرَبَتْ هذا الدين في سُوَيْدَاءِ القلوب.

في عصر الأقمار الصناعية، والهول النووي، والتسارع الآلي، والثورة الإعلامية، تعاني الإنسانية من ضراوة الحضارة الجاهلية المستعبدة للشعوب، المبذرة لثروات الأرض، المحاربة لكل ما يرفع شأن المستضعفين، ويحررهم من أوهاق الاستعمار. ويضج المستضعفون، والمسلمون أشدهم ألما، من وطأة الاستكبار العالمي. ينتظر المستضعفون في الأرض خلاصاً من غزو التفجير والنهب، ومن الاحتلال العسكري والاقتصادي والثقافي. وقد بدأ المسلمون، مع العالم، يدركون أية قوة احتفظت بها عقيدة التوحيد، وأية طاقة يستطيع الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر تفجيرها في وجه الاستكبار وأعوانه. رأى العالم بدهشة تتم عما هنالك من ازدياد تقليدي بالمسلمين كيف هب إخوتنا الشيعة في

إيران وكيف صال أسدُ الله في أفغانستان. وكان درسا تعلموه فازدادوا خوفا من العملاق الإسلامي النائم. وتصدر اهتماماتهم جميعا رصد المومنين وملاحقتهم وسفك دمائهم إشفافا أن تسري روح الجهاد في الأمة فتعصف بالظالمين.

برز جهاد المسلمين العزل في أفغانستان وانتصاراتهم برهانا على أن هذا الدين قوة المستقبل، قوة لا تقهر، قوة تتحدى بالإيمان أعتى طواغيت الأرض.

تأصيل المنهاج

في رفقتنا عبر صفحات هذا الكتاب نحتاج أن يتم بيننا تفاهم، ويبقى واضحا حبلُ الأفكار.

فبعد مطمحنا الأول والأساس أن تكون كل كلمة نخطها ونقرأها تذكرنا بالله.

وبعد المطمح الثاني التابع أن نبحث ونعثر على المنهاج النبوي العملي لإقامة دولة القرآن تأسيسا وبناء وتوحيداً للأمة.

نأمل أن لا ننتيه بين أساليب الكلام ومصطلحاته، وأن يكون استمدادنا العلم القرآني والهدي النبوي أصلاً ثابتاً يحصننا من الضياع، دون أن يحجب عنا حكمة الله في أفاق الكون وتسلسل التاريخ. دون أن تمنعنا موعظة القرآن من الاتعاض بعبرة القرى، وهو تعبير قرآني عن مجتمعات بشرية خلت يعرضها علينا الله سبحانه دروساً. بل إن عبرة القرى -أي دروس التاريخ- من موعظة القرآن.

إن كان الوحي أصل معرفتنا فالأرض وعامروها واضطرابهم عليها مهبط ذلك الوحي. يخاطب الأمر الإلهي فينا حاسة الإيمان كما يخاطب فينا العقل وهو مناط التكليف. ونتلقى السيرة النبوية وروائع الجهاد تحت راية القرآن بالإكبار والتطلع لخير مثال يحتذى. يحصل في الذهن تصور لما كُلفنا به من قبل الحق عز وجل، يتفاوت وضوحاً وتتفاوت دواعي إنجازه حسب ما عند كل منا من إيمان وإيقان وإرادة. وتحصل في الخيال صورة النموذج النبوي والراشدي ملونة بالحنين إلى عهد يضيء عليه تفردته بالقيادة المعصومة والتوفيق الذي يخص الله تعالى به أصفياه حلة الجاذبية والمثالية.

ذلك عهد التفت فيه معاني السماء بتطلعات الأرض، وتجسدت أثناء حركة التاريخ في أمة هي خير أمة أخرجت للناس. ويتحدث اليوم المتكلمون باسم الإسلام أصنافاً ومدارس. فتجد منهم من يقلص السيرة النبوية إلى حجم أرضي صرف ويفسر ظهور الإسلام بانتصار طبقة العبيد والمقهورين تحت قيادة رجل عبقرى وقائد موهوب اسمه محمد، أقول : صلى الله عليه وسلم. وتجد آخرين يعالجون تاريخ الإسلام عبر هذه العصور الطويلة بالعرض المجرد، لا ينفذ نظرهم إلى ما وراء الأحداث وما سبقها وما نتج عنها. وبين أصحاب التفسير المادي للتاريخ و"المؤرخين" السُدج لا يمكن تفاهم، بل يضيع فكر طالب العلم بين الطائفتين. ينفر طالب العلم من الماركسي المادي الملحد وتحليله، وقد يكب

على استعراض السيرة العطرة يتتاغى معها مناغاة عاطفية تسليه عن واقعه المهزوم، أو يستهويه البريق الكاذب لتجار التضليل المادي تلامذة ماركس فإذا ظهور الإسلام بين عينيه أمجاد قومية لا غير.

سوق الحديث القومي عن الإسلام صاخبة، لذا نتأكد من مواقع أقدامنا في هذه الرفقة لكيلا نتبلد مع الإعجاب العاجز بتاريخ عزّنا، ولا نغتر بمن يُعوزهم السندُ في صفوف الأمة، فينصبون لها الشراك السياسي لاصطياد ودها بترديد عبارات المديح للقائد العبقري والزخم القومي المجيد.

الانقطاع المعرفي

اعتذاري للقارئ الذي بقي على أصله لم يبتل بمجادلة أجيال تلوك الكلام المترجم. إنها طوائف مما يسمى بالمتقنين نحب أن يجدوا هنا يوم تنقش عن أعينهم الغفلة، أو بعض سُحُبها، أسبابا للحوار عسى يفيئون إلى الله ويرجعون عن أفيون الفكر المادي.

سيطرت الحضارة الجاهلية المحتلة على أرض المسلمين واقتصادهم وثقافتهم، فانقطع في تصور الذراري المغربين ما كان موصولا في تاريخنا. فإذا بهم يقفون أساتذة، نوابا وخلفاء للمستعمر، يلقون في جرائدهم ومجلاتهم وكتبهم وفي جامعاتنا ومدارسنا الدعوة للنمط الجاهلي، يستندون إلى هيبة الحضارة الميكانيكية في نفوس المغلوبين. يغمرهم الجو الثقافي بفلسفة المدارس الجاهلية التي ينبون عنها بين ظهرانينا. ويشوهون للأجيال الصاعدة صورة الإسلام وتاريخ الإسلام، ويبثون منهاج اللايكية والتاريخانية والتراثية القومية.

من هؤلاء، وفي طليعة الغزو الفكري، دعاة لما يسمونه "الانقطاع الإستمولوجي". وتعني الكلمة والدعوة أن نفصل بيننا وبين القرآن والإيمان والألوهية والربوبية والنبوة والوحي فصلا نهائيا. وذلك عندهم شرط أساس لنهضة "الأمة" العربية. يا حسرتا على عروبة تخرب الإسلام ولم تكن العروبة شيئا يذكر لولا الإسلام ! عندهم ماثلا في العقول والضمائر تاريخ أوربا، فلا يتصورون سبيلا للخلاص التاريخي إلا بمحاكاة ذلك التاريخ. فكما انقطعت شعوب أوربا عن الكنيسة واعتمدت مصدرا للمعرفة الفكر الحرّ البشري الذي كانت تضطهده وتقاتله الكنيسة، يجب أن ننقطع نحن عن الدين السماوي، ونُهدي كياننا قربانا للعبقرية الأوربية، علها تقبلنا وتعترف بأننا من بني الإنسان. ولا بأس بعد ذلك أن نحفظ بالتراث في متحف الأمجاد القومية.

إن تأثير الحضارة الجاهلية على عقول الذراري المغربين أنكى من تأثيرها على حريتنا واقتصادنا. ذلك أن استعمار الأرض، ونهب الخيرات، وسفك الدماء، لا يعدو أن يصيب الأطراف. أما احتلال العقول وتشكيل حياة الناس في كل المناحي فهو غزو حضاري يصيبنا في الصميم. وإن التحول العميق في تاريخنا، منذ صدمة الاستعمار، ومن جراء الهزائم المتتالية العسكرية والمعنوية، وخاصة منذ حصلت بلاد المسلمين على الاستقلال السوري وخلف الكفار المستعمرين في الحكم نشء مرتد كُلا أو بعضا، تحول عميق ويزداد عمقا. تشبَّهنا بالغزاة وتشربنا بمخالطتهم والتلمذة لهم - كما هو شأن المغلوب مع

الغالب- رُوحَ الجاهلية شعارا، وأنماطها الحضارية دثارا.

والخلفُ المغرَّب يريد في زعمه أن يقاتل الأمبريالية -حسب تعبيرهم- ويظن أن أمضى سلاح في هذا القتال هو سلاح صنع خلال تاريخ أوربا فهو جاهز. صانعوه راغبون في تصديره، والخلفُ المغرب حريص على الترويج له. هذا السلاح يسمونه العقلانية. وتعني الكلمة أولَّ ما تعني أن لا إله إلا العقل، وأن عباقرته لم ينقطع جيلهم، وأنه لا بد للعرب من بُغَاءٍ ينتقدون هيجل وماركس، ويتجاوزون الاشتراكية الأوربية، ويبتكرون اشتراكية قومية تراثية. والعقلانية حبل واصل متين بيننا وبين البشرية، فلكي نكون على مستوى العصر ينبغي أن ننقطع عن الغيبات وكل هذا الهراء.

إننا إذ نفتتح الحديث عن دولة القرآن لا نستغني عن تفقد ما زرعه الجاهليون ويزرعه وكلاؤهم من سموم وأشواك. وإننا إذ نريد تأسيس معرفتنا على الكتاب والسنة لا نستغني عن الالتفات لمن ينادون بقطع الصلة بيننا وبين كل ذلك إلا باعتبار القرآن "خطابا" عربيا، واعتبار النبوة عبقرية عربية، واعتبار ظهور الإسلام تاريخا قوميا مجيدا. أفرز كل ذلك، في اللحظة المناسبة الحتمية، تاريخَ اضطرب في أحشاء العرب، حملته الرحم القومية، وحضر عملية الولادة وأشرف عليها عبقري من بني جلدتنا. فأى حاجة مع هذا للبناء الفوقي الإيديولوجي المتمثل في الألوهية والنبوة والوحي ؟!

لا نستغني -رغم أن كتابنا هذا ليس كتاب جدل- عن تفقد ما يسود في عقول طوائف المثقفين المغربيين ولا عن الالتفات لخطورة زرع الجاهلية فينا.

لا نستطيع معالجة جاهلية اليوم دون أن نعرف تركيبها ووجهتها ومنبعها. ولا مستقبل للإسلام إن سقط في فخ المواجهة الفكرية والجهادية بسلاح مستعار من غيرنا. فلا بد من انقطاع معرفي وحضاري. لا بد من قطع حبال الجاهلية اليوم كما قطعها سلفنا الصالح. بيد أن دعاة العصرية والتغريب، حين ينادون بالانقطاع المعرفي، يرفعون الصوت بدعوتهم عاليا بعد أن مكنوا أقدامهم - سواء كانوا حزبا حاكما أو حزب معارضة- على أرض الواقع. حبلمهم موصول بالعالمية الجاهلية، وحقهم مصون، وبرنامجهم معروض للسائل، مدسوس في المدرسة والجامعة والشارع والكتب والنشرات. فتحت علم السيادة الحضارية الجاهلية تخفُّق أعلامهم، ومن مائها يستقون، ومن طعامها الفكري والمادي يتغذون، ولا تخشى مجامع الجاهلية أن تلتقي بهم بل تحرص. وتؤوي جامعاتهم، وتشجع أئمتهم. وتنتظر حكومات الجاهلية صعود عصاباتهم على

رقاب الشعوب الإسلامية لتخالل وتخاذن وتتاجي وتلقن وتعتق بالأحضان. صلتهم الحميمة بالجاهلية قلبا وقالبا جرأتهم على الجهر بالردة والدعوة لها تحت عبارات مستغلة كعبارة "الانقطاع الإستمولوجي".

أما نحن تحت وطأة الحكم الجبار فدعوتنا لقطع حبال الجاهلية لا يرحب بها إلا المستضعفون الذين نجوا من التخدير الدعائي، الرسمي منه والحزبي والقومي.

أما نحن فالذي يصلنا بالله ورسوله إيمان بالله ورسوله وكتابه. إيمان سماوي تحتقبه القلوب. وقد يصدمه الواقع المر العنيف علينا فيخلق في عليّ المثال. لذلك تجد بعضنا لا يقول بضرورة عرض منهاج كامل لعملنا، فأحرى عرض برنامج قابل للتطبيق في ميادين السياسة والاقتصاد وتغيير المجتمع.

معاني السماء في قلوبنا، وحقائق الأرض تحتجن أموالنا وتشل طاقاتنا، ونغير على حرماتنا، وتخر أفكارنا.

وإنه لضروري صياغة معرفة بالكيف الإسلامي لإنجاز ما عندنا من غاية وأهداف، صياغة تأخذ في اعتبارها أمسنا الممجد، وغدنا المتألق بوعد الله ورسوله، وحاضرنا المرهون في يد أعدائنا. ويرجى أن تكون هذه الصياغة ملتنقى في العقول لقدر الله المتمثل في التاريخ وشرعه المنزل المصون. ويرجى بعدئذ أن تتوحد النظرة، ويتوحد على إثرها منهاج العمل وبرامجه، فيكون غدنا ابتكارا إسلاميا لا تقليدا للجاهلية يلفق من شعارات التراث ستارة يتم وراءها اغتيال الإسلام.

ابتداء من الحاضر

ما نريده ونحدث به أنفسنا من جهاد يكلله الله بالنصر غيب في غيب. ثم إن تلك الإرادة الإيمانية هي الطاقة المحركة. فيكون تجديد الإيمان وتربيته وتقويته وتعميمه وتكوين جند الله المقاتلين عن الإسلام الخطوة الحاسمة.

وجند الله بعد أن يتألقوا صفا مجاهدا، وخلال ائتلافهم، جزء من الأمة يعايشونها وينالهم ما ينالها. لا معنى للجهاد إن رفض جند الله أيديهم من الحاضر المكروه ولم يُعَنُوا العناية التامة بتركيبه ودقائقه وحركته والقوى المهيمنة عليه.

من هذا الواقع الحاضر تبدأ الحركة، وإياه تقصد بالتغيير.

زماننا تتوالى فيه النكبات علينا. نحن فيه الضحية السهلة والغنيمة السائغة لشيع الصراع العالمي. في ميزان التكتلات نحن الأخف وزنا، وتطوق أجهزة القمع المحلية والعالمية تحركاتنا لتُخنق الوليد الإسلامي، لا سيما وهو يعبر عن حيويته بكل وسيلة، وتبلغ قوته أن يُسقط عروشا تسندها الجاهلية بكل قوتها.

وعلى من يريد فتح باب مستقبل الدولة القرآنية أن يزاحم ويصابر ويتصدى لكل التحديات. ولن تترك الجاهلية ربائبها بيننا تتحطم مراكبهم وتغرق في أمواج المد الإسلامي إلا عن يأس نهائي. ولا ييأس الذين كفروا ولا يرضون دون تكفيرنا وإخضاعنا المستمر.

الحاضر ثقله علينا كُلُّهُ، ودعاة الباطل ورعاته بيننا تخطب الجاهلية وُدَّهُمْ، إن كان الأذنان يحتاجون السيد أن يتزلف إليهم.

والأمة مُنَوِّمة بالتخدير الكلي الذي ما ترك مجالا من مجالات الحياة إلا أنسى فيها تعاليم الإسلام وأهداف الإسلام ومعنى الإسلام. غزوٌ شامل، وقبضة باطشة، وتهديد ووعيد لزجر كل نائمة إسلامية تحررية وتمييعها وقتلها.

الأمة منوِّمة مقهورة، وعلى السطح طبقة حاكمة منشقة على نفسها - متفاهمة ضد الإسلام - تتعاقب على كرسي الزعامة، وتتوغل علينا أساليب البطش. تحتكر هذه الطبقة علوم العصر، ونظرية الإصلاح والثورة، ومناهج التغيير، وخبرة السياسة. وتكتشف هذه الطبقة على مر التجارب أن محيطها لا يتعدى "نخبة" شمت ريح الجاهلية، ثم أُشْرِبَتْ روحها، وتقمصت حضارتها. وتكتشف أن "خط الجماهير" لا يلتقي بخطها لأن أمتنا مسلمة لا تزال. وعندما نُعْلِمُ أحداثُ القومية الإسلامية العالم أن الإسلام حي في الأمة، وأن طاقته لا

ثُغالب، يلفق مُنظَّرو الثورة الجماهيرية شعارا بديلا عن شعاراتهم بالأمس، يسمونه "القومية" التي تكن للتراث أجمل الذكر وأفخم التقدير... ليبقى في الرف بعد أن تفعل شعارات احترام الدين فعلها المخدر. وهيئات بعد اليوم !

إمامة الأمة محورُ الصراع بين عَصبة الإيمان وعِصابة الوُكلاء عن الجاهلية. نحن بلُحمة الإيمان الواصلة بيننا وبين العامة أقرب لقلوب الأمة، وهم أَحَدٌ وَعَيًّا لعامل الالتصاق بالشعب وأعلى ادعاء له. ويبقى التصاقاً من خارج بجسم الأمة الذي لا يقبل الدخيل. وكما يكون لصيق القوم الدخيل فيهم أحرص الناس على إثبات نسبه فيهم لينفي التهمة عنه، فادعاء الجماهيرية يزعمون أنهم المعبرون عن إرادة الشعب، القادرون وحدهم على تفجير طاقاته، وقيادته في مسار الثورة المحررة، واسترجاع الكرامة، ومحاربة الصهاينة.

لا يتخلى اللبراليون، وهم أتباع الغرب الجاهلي، عن تبني "خط الجماهير" لإخوانهم "التقدميين" الثوريين أتباع وأذئاب الشرق الجاهلي. من وراء هؤلاء وأولئك دعم روسيا وأمريكا ومن في دائرة المعسكرين^{[1]3}.

وفي سوق التزييف يقدم مشروع كل فريق على أنه الإسلام، فما شئت من اشتراكية إسلامية وإسلام إصلاحية. والأمة متعطشة لعدل هو عندها مرادف "إسلام"، محتاجة لحكم عادل هو في ضميرها شورى الإسلام، منتظرة ليوم مشرق تسود فيه الكرامة والرخاء والقوة تحت راية الإسلام.

وقد مكنت عملية الإرث التي تسلم بمقتضاها المغربون زمام الحكم من يد الاستعمار أقدام الاستعمار الجديد على يد أبناء جلدتنا. فيسخرون وسائل العلوم والمال والسلطة للإقناع بمنهاجهم وفرضه.

^{[1]4} وضعت هذا الكتاب أوائل سنة 1403 قبل الأحداث الضخمة سنة 1410 التي تمخضت عن انهيار الشيوعية والمعسكر الشيوعي. لكن متقفينا المغربين، وهم إنما أخذوا صبغتهم الفكرية والعقائدية من فترة تقابل المعسكرين وانتصاب روسيا في مكانة نصير المقيهورين، لا يرجعون إلى تقدير جديد للموقف العالمي. (ملاحظة سنة 1410).

المنهاج النبوي

الحاضر خضم زاهر، تاريخ يعج بالتحديات. وجند الله لن يشقوا ذلك العباب إلى غد الإسلام إلا بعقيدة لا إله إلا الله، وأخلاقية لا إله إلا الله، وعقل تابع لوعي الله، ماض في تنفيذ أمر الله، على خطى رسول الله.

انقطاع كلي ضروري عن تفسخ الآخرين خلقا، وهجانتهم فكرا، وتبعيتهم حسا ومعنى.

وبقدر ما تكون وصلة جند الله بكلمة الله وسنة الله أقوى، تتضاءل في أعيننا العقبات والتحديات. ويكتسب الحاضر المعقد الثقل الوطأة على الأمة إغراء فريدا للمجاهد الذي يجعل غاية أمانيه إحدى الحسينيين.

أعداء الإسلام يصفون لنا السم على أنه الدواء الناجع. يشيرون بحمىة "الانقطاع الإستمولوجي" لمريضنا ليتم بتر الإسلام من كيان الأمة. ويجعلون هذا الانقطاع مقدمة ضرورية لنقلنا إلى منهاج اللابيكية والاشتراكية والثورية إلخ.

والمنهاج النبوي يبدأ أيضا بالانقطاع عن موارد الجاهلية فيما يرجع للعقيدة والخلق والذاتية ومنهاج العلم والعمل. ليكون الوعي مصدر فكرنا، وتكليف الله سبحانه وتعالى حافظنا للعمل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم رائدنا.

دع قِصار الفهم، عن غباوة أو تغاب، يُسْفُون عندما يلقنون الناس أن الإسلام رجوع لحضارة الجمل، وفكر الحيض والنفاس، استخفافا لعقول الناس، واستهزاء بأحكام الله، ومنها أحكام الحيض والنفاس التي تحتل مكانتها، وتبقى خالدة ما تلي القرآن. وكل حكم من أحكام الله عز وجل جزء لا يتجزأ من منهاج النبوي.

وردت كلمة "منهاج" في الكتاب والسنة :

قال الله عز من قائل : "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا" (سورة المائدة، 48). فسر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الشريعة بأنها ما جاء به القرآن، والمنهاج ما جاءت به السنة. فعلى هذا تكون الشريعة أو الشريعة أمر الله المنزل الضابط للتكليف وشروطه وأحوال المكلفين، ويكون منهاج هو التطبيق العملي للشريعة، وإنزالها على أحداث التاريخ في الإطار الزمني والمكاني والاجتماعي والاقتصادي السياسي المتغير المتطور، الذي تمثل السيرة النبوية

نموذجاً فذا له، لكن نموذجاً حياً قابلاً للتجدد في روحه وإن تنوع الشكل. وبهذا الفهم الواسع المتحرك للسنة يمكننا أن نتجاوز ضيق من يفهم السنة تكراراً حرفياً تعبدياً للشكل، تكراراً يضيع معه ومن جرائه روح السنة وأهدافها. فما كان من السنة تعبداً من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته ثوابت لا يجوز عليها التحويل. وما كان منها سلوكاً سياسياً ومعالجة لحياة الناس وسياسة للمال والجهد دخل في حيز الصناعة التي تستقي الحكمة من معين الوحي والنبوة، والحكمة العملية من خبرة التاريخ.

وهي صناعة يساعد على فهمها صيغة "مفعال" التي جاء عليها "منهاج" الدالة في لغة العرب على الآلة كمسمار، أو مجال الحركة كمضمار، أو أداة القسمة والعدل كميزان. سنة إذا هي منهاج بشمولية قابلياتها في الفعل والحركة ووضع الأمور في مسارها الشرعي.

وفعل نهج وانتهج في اللغة يلحق معنى كلمة شرع واشترع. إذ كلاهما يحمل معاني الطريق والسلوك والسير.

فلننظر كيف جاءت كلمة "منهاج" في كلام النبوة لنستخلص منها مفتاح الطريق في رفقتنا هذه التي تتطرق من الإطلال على حاضرٍ مُرٍّ، وتتبع ما رسمه الوحي لتاريخنا الماضي والحاضر والمستقبل.

الحديث الأول :

روى الإمام أحمد رحمه الله بسند صحيح عن حبيب بن سالم رحمه الله عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : "كنا قعوداً في المسجد مع [1]5 رسول الله عليه وسلم، وكان بشير رجلاً يكف حديثه. فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال : يا بشير بن سعد، أتحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمراء ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة. فقال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت. قال حبيب : فلما قام (أي ولي الأمر، وأحفظُ باستعمالهم لكلمة قام فلنا معها شأن)

عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه. فقلت له إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين، يعني عمر، بعد الملك العاض والجبرية. فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز، فسرَّ به وأعجبه".

من خلال هذا الحديث النبوي تدخل كلمة منهاج لتؤدي وظيفتها الحركية، إذ تربط تاريخ انبعاث الأمة بعد أطوار الخلافة الراشدة الأولى، فالملك العاض، فالملك الجبري، باتباع المنهاج النبوي. والحديث يتضمن الوعد الصادق بأن الخلافة الراشدة تعود. يتشبث وهم التاريخانيين بنظرية "الحتمية التاريخية" التي لا سندَ علميا لها والتي انتهى أجلها مع موت الإديولوجيات في عصرنا، ويملاً هذا الوهم في تفكير المادي فراغا خلَّفه كُفْرُهُم بالقضاء والقدر. وها هو هذا الحديث يجمع لنا :

1- شرع الله الذي يضمن الخلافة في الأرض لمن اتبع الهدي النبوي.

2- قدر الله الذي يكشف أطواره الوحي، وتبلغُ بشارته عمر بن عبد العزيز رحمه الله فيسرُّ، وتبلغنا فنُسَمِّرُ احتفاءً بالبشرى، وتأهباً لورود القدر الموعود، توكلنا منا، مع إعداد القوة، واتخاذ الأسباب، لا نعاساً وأحلاماً.

الحديث الثاني :

نقل الإمام الشاطبي عن الحافظ البزار رحمهما الله رواية لهذا الحديث تشتمل على زيادة مهمة. جاء في كتاب الموافقات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أول دينكم نبوة ورحمة. وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم يكون ملكا عاضا فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعه الله جل جلاله. ثم يكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي، ويُلقَى الإسلام بجِرائِهِ (أي يتمكن في الأرض) في الأرض، يَرْضَى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطر إلا صبته مِذْراً، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلا أخرجته".

إن الفرق بين المومن الذي يسمع عن الله ورسوله ويعقل وبين صم العقلانية الكافرة أنَّ المومن العاقل بقلبه عن الله لا تتفصل في ذهنه ولا في عمله حركة الشرع الإلهي الأمر بالمغالبة والمقاتلة والجهاد والمدافعة لنصر الله عن سماعه

بالإيمان والإيقان حديث القدر المُنزَّل به الوحي.

المحلل المادي لا يرى التاريخ البشري إلا صراع طبقات وعصبية بمعزل عن السماء. والمسلم الخرافي يتحول إيمانه بالقدر انسحاباً من ميدان العمل والمدافعة، فيتعطل لديه الحافز الشرعيُّ على عمل الصالحات. أما المومن الجامع بين النظرتين فلا تناقض لديه بين ما أمرَ به وما قُدِّرَ عليه. يسعى جهده، ترتبت النتائج المنطقية على جهده أو تخَلَّفَتْ. فهو بهذا طاقة فاعلة. وهكذا كان المرسلون والصدِّيقون والشهداء والصالحون. ولا فرق بين خرافية الحالمين من المسلمين وخرافية معتقدي الحتمية التاريخية إلا أن عقيدة هؤلاء تُحيي فيهم جذوة الصراع وتُضرمُ ناره، بينما تقتل خرافية أولئك روح الجهاد.

حديث البزار رحمه الله يزيدنا توضيحاً للخلافة الموعودة المرتقبة حيث يعرف المنهاج النبوي أنه : "عمل في الناس"، أي سياسة وحكم وتصرف اقتصادي وعدل اجتماعي، بسنة النبي. كما يزيدنا توضيحاً لنتائج اتباع منهاج النبوة، من رضى ساكن السماء وساكن الأرض عنها، أي بركة الله واجتماع كلمة الأمة. ويصف لنا هذه البركة ازدهارا اقتصاديا ورخاء.

نكمل هذين الحديثين العظيمين بستة أحاديث لم تذكر فيها كلمة "منهاج" لكنها تبين للذين يؤمنون بالغيب فيهيئون له من الأسباب المشروعة ما يكفل نزول القدر مراحل تاريخ الأمة كما سَطُرَتْ في الأزل وأخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم :

الحديث الثالث :

روى الشيخان وأبو داود رحمهم الله عن حذيفة رضي الله عنه قال : "كان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت يا رسول الله ! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ! قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ! وفيه دَخَن. قلت : وما دَخَنُه يا رسول الله ؟ قال : قوم يستتون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتتكر. فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ! دعاة على أبواب جهنم. من أجابهم قذفوه فيها. فقلت يا رسول الله ! فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعصَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك".

هذا الحديث الشريف يزيدنا بيانا لمرحلة الملك العاض، وهو، والله أعلم، الملك الوراثي من لدن نهاية الخلفاء الأربعة الراشدين إلى سقوط الدولة العثمانية. ويزيدنا بيانا لمرحلة الملك الجبري وهو، والله أعلم، الحكم المستبد الذي يعرفه زمننا، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول والثاني المرحلة التالية بأنها ملك عاض. صفتان تخرجان الحكم عن دائرة السنة من حيث كونه ملكاً لا خلافة، ومن حيث كونه عاضاً أو عضوضاً كما في بعض الروايات. والعض القهر والظلم. وفي الحديث الأول والثاني يصف المصطفى صلى الله عليه وسلم المرحلة التالية بأنها ملك جبرية. ملك كالأولى وجبر هو أشد من العض. في حديث حذيفة رضي الله عنه يتطابق الملك العاض مع مرحلة الخير الذي فيه دخن. والدخن الكدر. ولا ريب أن من ملوك الوراثية السابقين أفضالاً قليلين كانوا رجال الإسلام، دافعوا وجاهدوا. فهم الخير في سلسلة الوراثية العاضة وهي الشر. ولا شك أن تلك الدول لم تنتكر للإسلام جهاراً، رغم الفسق المستخفي والمفضوح، كما ينتكر له حكام هذا الزمان الذين يجهرون بالكفر. هؤلاء الحكام المرتدون علناً أو ضمناً منذ أتاتورك أحق من ينطبق عليهم اسم الدعاة على أبواب جهنم.

في هذا الحديث الثالث يوصي المعلم المعصوم صلى الله عليه وسلم كل مومن، من خلال وصيته لحذيفة رضي الله عنه، أن يلزم إن أدركه عهد أهل الجبرية، جماعة المسلمين وإمامهم وأن ينقطع عن تلك الفرق، عصابات الدعاة على أبواب جهنم. وانظر رحمك الله من حواليك كم حزبا لا يبيكيا لبراليا أو تقدما اشتراكيا أو جماهيريا شعبيا يدعو الناس لنبد الدين كفاحاً أو يتلون على الدين نفاقاً، فمُعْضِلُ المومن الحريص على دينه أن ينجو من النار ودُعَاتِها كما حَرَصَ حذيفة رضي الله عنه ألا يقع في الشر بعد الخير. هنا يُبْلَغُ صوت النذير البشير صلى الله عليه وسلم المومن أن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم. فإن لم يكن جماعة وإمام فلا أقل من اعتزال فرق الضلال. وجماعة المسلمين اليوم وغدا لا تزال في طور التكوين وليداً ناشئاً في أرجاء أقطار التجزئة. واجب المومن الحريص على دينه أن يساهم في إنشائها وتقويتها ودعمها استعداداً للمرحلة الموعودة، مرحلة ما بعد الملك الجبرية. وهي كما قرأنا في الحديثين الأول والثاني مرحلة الخلافة على منهاج النبوة. وللمومن الضعيف دائماً رخصة الفرار بدينه يرعى غنمه في قُتَّةِ جبل ويدع الناس من شره كما جاء في الصحيح.

الحديث الرابع :

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر (أي سكان الحضر والبادية) إلا أدخله الله كلمة الإسلام، بعزٍّ عزيز أو ذُلٍّ ذليل. إما يعزهم عز وجل فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها". ويروي الإمام أحمد رحمه الله الحديث من طريق آخر عن تميم الداري رضي الله عنه.

هذا الحديث يبشر بظهور الإسلام وعزته وانتشاره في الأرض انتشارا يعم ظهرها. وهذا ما لم يحدث بعدُ. ولعل الله عز وجل يذخر للآخرين رجال الخلافة الثانية مثَل ما يسر على يد الأولين.

الحديث الخامس :

أخرج الإمام مسلم وأبو داود والترمذي رحمهم الله عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيلغ مُلْكُها ما زوى لي منها". الحديث.

وهذا لما يحدث. لما يبلغ سلطان الإسلام -بِعز عزيز أو ذل ذليل- مشارق الأرض ومغاربها. وسيحدث، وعد من الله ورسوله غير مكذوب. وينفصح أمام المومن أفق المستقبل مشعا. وما أشد ظلمة حسابات المستقبلين الذين يتخيلون "سيناريوهات" لمستقبل البشرية إذ يعتمدون على تدبيرهم وحذقهم. والمستقبلي المومن بين يديه وعد الله ورسوله ينير أمامه، فإن حَسَبَ وقَدَّر واحتاط وخطط -وكل هذا واجب شرعي- فإنما يفعل على بينة من قَدَر ربه. وهذا فرق ما بين الذي يخبط في ظلام الأرقام والأوهام والذي تلقى كلمة الحق فهي له إمام.

الحديث السادس :

أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. فينزل عيسى، فيقول أميرهم : تعال صل لنا. فيقول : لا ! إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة".

هذه الرواية أخرجها الإمام مسلم رحمه الله في كتاب الإيمان من صحيحه. وفي كتاب الإمارة أخرج الحديث من تسع طرق يكمل بعضها متن بعض تفيد أن طائفة من الأمة لا تزال إلى يوم القيامة "ظاهرين على الحق" "لا يضرهم من خذلهم"، ولا من "خالفهم" ولا من "ناوهم"، "قاهرين لعدوهم". وآخر رواية في

كتاب الإمارة هي المسندة إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة". وقد فسر المحدثون "أهل الغرب" بأنهم العرب، قاله ابن المديني رحمه الله. وفسروه بأنهم أهل الشام أو أهل بيت المقدس أو أهل الدلو. وقال عياض رحمه الله : هم أهل الشدة والجلد. وذكر التادلي رحمه الله في مقدمة كتاب التشوف أن الحديث ورد في مسند بقي بن مخلد رحمه الله، وهو كتاب تحت الطبع في الكويت، وعند الدارقطني رحمه الله بلفظ المغرب بميم قبل الغين[2]6. فهل هو ما يسمى اليوم بالمغرب. وهل يجوز أن نقصر الخير في قطر دون قطر ؟ نعم جاء في أحاديث صحاح تأكيد فضل أهل اليمن وأهل الشام وغيرهما. لكن نرجو أن تكون هذه الطائفة الموعودة المقاتلة على الحق المنتصرة القائمة على جهادها خلافة المنهاج النبوي أوسع دائرة وأعمق أثرا من أن يحصرها قطر.

في حديث نزول عيسى عليه السلام أن بعضنا على بعض أمراء، ونحن يومئذ ظاهرون أي لنا دولة وشأن في العالم. هذا يزيدنا فهما للبشارة. وتخصص أحاديث كثيرة -بلغ بها بعض المحدثين سبعين حديثا و أكثر- فيها الثوابت الحسان، دولة الإسلام آخر الزمان بنعت الهداية، تخبرنا عن المهدي من آل البيت الذي "يملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا". من هذه الأحاديث ما رواه أبو داود والترمذي رحمهما الله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني -أو من أهل بيتي- يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا". وهو حديث ثابت لا يقل عن درجة الحسن. وله عند أبي داود والترمذي وغيرهما رحمهم الله ظواهر كثيرة تقويه.

لكن الخطرَ كلَّ الخطر في الفهم العامي لقيام المهدي الموعود. رجال قاموا في تاريخنا وتسموا مهديين ونفع الله بهم. معذرون إن اشرأبت أعناقهم للمزية الفريدة، ومعذور من قاتل عن الإسلام إلى جانبهم. وما هي إلا هبّات متتابعة التقى فيها الداعي المقتنع بقضيته بجمهور ينتظر. أما الانتظار البليد فهو الخطر. أن تبقى العامة في أحلام الانتظار وخموله دون النهوض والتشمير. ومن الفهم العامي أن يتصور الناس رجلا -بلغ ما بلغ من التوفيق والعلم والشجاعة والحيوية- يبرز فجأة والناس من حوله نيام خاملون فتحدث المعجزة.

ولن يبلغ أحد ولا معشار ما خص به محمد صلى الله عليه وسلم من التوفيق وكل خصال الخير. ومع خاصية النبوة والرسالة والعصمة فإن قيامه صلى الله عليه وسلم تدرج على سنة الله في النبيئين قبله، واندرج جهاده في تاريخ الأرض وهو صراع ومدافعة ومغالبة. ولن يكون المهدي الموعود، الذي نصدق به جميعا أيتها الأمة من شيعة وسنة، إلا لحظة من لحظات الجهاد والخلافة على منهاج النبوة. ربما يكون زمانه قمة الجهاد والخلافة كما تدل على ذلك الأحاديث الثابتة عندنا وعند إخواننا. لكن حياة رجل يجدد الله به أمة ويوحدها لا تكفي لتهيء الإحياء والتجديد والتوحيد. والفهم السليم لأخبار المهدي هو ذلك الفهم الذي لا يعزل القدر المنحدر إلينا حقائقه، رواية، عن شرع الله الذي يطلب إلينا دراية الجهاد وضرورة إيقاظ الأمة وتعبئة الطاقات.

الحديث السادس الذي أوردناه يشد من عزمنا على طريق الخلافة على المنهاج النبوي، إذ أحضرنا مشهداً غيبياً يشهد لنا فيه المسيح عليه السلام أن إمامنا ميثاً، تحقيقاً لبشارة حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم بأن طائفة من الأمة لا تزال "ظاهرة" على الحق إلى يوم القيامة. والحديثان الرابع والخامس يفسران الظهور بأن الإسلام يعم أهل المَدَر والوَبَر، ويبلغ ملك هذه الأمة مشارق الأرض ومغاربها. وفي إطار هذه البشارة لا تتفرد أحاديث المهدي عن سياق القتال عن الدين والقوة في ذلك، حتى "لا يضرهم من خذلهم وناوأهم"، وحتى يقهروا عدوهم. ففي هذا السياق لا تكتسي قيادة رجل موفق مهدي حلة السماوية المحلقة فوق الواقع المتعالية عليه. وإنما بعد جهاد تاريخي لأمة موعودة. ولحاجة الناس إلى تجسيد المعاني في رجل تبلورت همم أجيال المسلمين حول الانتظار. ونرجو أن يستيقظ هذا الانتظار من خمول القرون، وأن يتحرر من القفزات التاريخية باسم الهداية لينشط زحف الأمة إلى غدها المحقق وعدا من الله ورسوله.

الحديث السابع :

روى الإمام أبو داود والإمام أحمد رحمهما الله بسند جيد عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها. فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ! وليُنزَعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليَقْدَفَنَّ الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت".

هذا الحديث يوقظنا من الأماني المستقبلية لحاضر نعرف ما فيه من اتفاق عدونا على قتالنا حتى إننا قصعة هنيئة يُحَلِّقُونَ حولها. ما أنصع بيانك يا سيدي يا رسول الله ! ونعرف كثرتنا عددا وهواننا على عدونا هوانَ العُتَاء. ونعرف جرأة عدونا علينا حتى يغزونا في عواصم أقطارنا فلا نحرك ساكناً. يا لله لبُيُروَتَ ومظلومي فلسطين وضحايا أفغانستان ! ونعرف الوهن -وهو كلمة مفتاحٌ- على شكل تخاذل قادة العرب والمسلمين واستسلامهم للعدو، بل تملُّقهم المَهيِّين على الأعتاب لتبقى الكراسي عليها أصنام طاغوتية تتماثل لتعبد لها أمة التوحيد. ينبغي أن نزداد معرفة بكل هذه الأدواء لنتعلم كيف نستخلص النار من تحت الرماد، كيف نأكل بدل أن نترك قادة الجبر يقدموننا لقمة سائغة للعدو، كيف نجند هذه الكثرة لنتهض بأعباء البناء، كيف ننفخ في الأمة نفَس العزة بالله، كيف نفتحم صروح العدو مفضلين الموت في سبيل الله على عيشة الهوان.

هذا الحديث يرجعنا إلى الأرض والزمان والحالة المزرية. والمسافة بعيدة بين الموعود المشرق والظلام المحدث. بين الأمة المقاتلة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد الخلافة الراشدة الأولى وبين الأمة الغثائية اليوم. بدأ الانتعاش والحمد لله وبزغ فجر الصحو. لكن الدعوة اليوم في طفولتها لا ترقى لرجولة المهاجرين والأنصار ومن زاحمهم في الصف واصطف بالمناكب. رغم بطولات مجاهديننا في أفغانستان وعرامة الثورة الإسلامية في إيران لا تزال السمّة السائدة في سواد الأمة الخمول والوهن.

إن أمة الإسلام أمة تومن بالغيب، ولا هدي في القرآن لمن لا يؤمن بالغيب. وما آمن من آمن إلا بالغيب : بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر. كل ذلك غيب. غيب يفعل له عالم الحس والشهادة بالإيمان الفاعل المحرك. تخاف الله وعقابه فتتفعل. ترجو جنته ورضاه فتتفعل. يَحْيِي قَلْبُكَ بحب الله ورسوله وبتصديق وعدهما وترتفع همتك لتكون ممن يحبهم الله ويقربهم إليه فيرتفع عملك وجهادك ليسامي جهاد السابقين وعملهم. والله عز وجل الفاعل لا غيره.

إن مما يثبط العزائم ويدخل اليأس في الأمة تراخيها عن منافسة السلف الصالح وتلذذها بذكرهم وتسليها بتقديس أمجادهم، تعويضاً عن ضالة الحاضر وهوانه، وتحولاً عن مواجهة أنفسنا لنحملها محمل الرجال. يقرأ بعضنا الأحاديث النبوية التي تشير لفضل الصحابة وفضل القرون الأولى، وينسى أن يتلقى الأحاديث الواردة في فضل الأجيال اللاحقة بما تستحقه من فرح واستبشار

وتحفز للجهاد. لذا نورد الحديث الثامن ونبرزه كما أبرزنا أحاديث الخلافة الثانية وقوة الطائفة المهدية الظاهرة، وانتشار الإسلام وانتصاره.

الحديث الثامن :

أخرج أبو داود رحمه الله عن أبي أمية الشعباني رحمه الله أنه سأل أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : "ما تقول في هذه الآية : "عليكم أنفسكم" ؟ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ! سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحا مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك -يعني بنفسك- ودع عنك العوام. فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيها مثل قبض على الجمر. للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله". قال أبو داود رحمه الله : وزادني غيره : قال يا رسول الله ! أجر خمسين منهم ؟ قال : أجر خمسين منكم".

هذا حديث صحيح أخرجه أيضاً الترمذي وابن ماجه وابن حبان رحمهم الله. قال الترمذي رحمه الله : حديث حسن.

فيه حث على الائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر. وهما واجبان على الأمة وجوب كفاية، يُسْتَتَنَى من الوجوب من لا يستطيع أن يقوم نفسه وغيره. فذاك يفتح الحديث له رخصة التزام خُويصَّة نفسه والابتعاد عن العامة. وتحت الحكم العاض والجبري انزلق مجال الوجوب الكفائي فأصبح استثناء وتحول الاستثناء المرخص للضعفاء قاعدة عامة. وهكذا عم الرضى بالظلم والخنوع لسلطان القهر والسيف.

في زماننا وصل الشح المطاع ذروته على شكل مستكبرين استأثروا بثروات الأمة. ووصل الهوى المتبع غايته بفشو الفجور والفسق والردة والفساد. واتسع الناس في الدنيا وتنافسوها ونسوا الآخرة. وتنازعت السلطان على رقاب الأمة طوائف متشاكسة تستند إلى مدارس وثقافات دخيلة علينا. فما يجد طلاب العذر وملتمسو الرخص فرصة أبين من هذا ليستروا وهَنَّهُم وراء تأويل الحديث النبوي.

أما من يحمل هم الرجال، ويتصدى لمهمات الرجال، ويحدث نفسه بمزاحمة الرجال على باب الله الكريم الوهاب، فهي الغنيمة المثلى : أن يصبر في الواجهة ويقاقل لنصر الله، مقتحماً وهج نيران الفتنة، ولفيح التيار الجاهلي

الغازي، فيفوز بالعمل الفرد بأجر خمسين منهم رضي الله عنا وعنهم.

من الناس من يقرأ شطر الحديث ويقف عند رخصة الانزواء عن العامة، أي تطليق هم مصير الأمة. وتلزم جهود لنضع في بؤرة اهتمام هذه الأجيال هذه العزيمة النبوية على شد القبضة والصبر ساعة على مرائر الجهاد. وإنها لمأدبة من الله ما أكرمها ! ولا ينهج منهاج النبوة من لا يصبر كما صبر الأولون ويعمل للذي عملوا.

[1]7 كذا في المسند. ولعل المتن يستقيم هكذا : في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[2]8 في جل مخطوطات صحيح مسلم : لا يزال أهل المغرب بالميم.

إحدى الحسنيين